اقعد بسرعة كُلْ علشان هتروح مشوار

– فين يا أستاذنا؟

– مشوار يا أخي.. كُلْ مربىٰ التُّوت دي هتعجبك

أكلتُ في لحظات.. وجلستُ بانتظار الشاي التركي الذي يغسل المعدة.. يُصنع فيٰ بَرَّادين يعلو أحدهما الآخر: سُفلي يُوضع فيه الماء ليغلي، وعُلوي يُوضع فيه الشايٰ مع قليل من الماء ليغلي علىٰ البخار المتصاعد من البراد السفلي مما يجعله محتفظًا بنكهته الطيبة..

لم يسمح لي مولانا بالبقاء حتىٰ يغلي الشاي، فخرجت أغلي...

أعطاني مظروفًا مغلقًا قال إن به بعض الأوراق المهمة.. طلب مني توصيلها إلىٰ أحد أصدقائه الذين كنتُ أعرفهم.

توجهت إلىٰ الرجل لا ألوي علىٰ شيء.. استقبلتني الخادمة فأجلستني في الاستقبال حتىٰ يحضر الرجل..

مر الوقت بطيئًا.. أشرفت علىٰ الأربعين دقيقة دون أن يخرج صاحب المنزل..

لم يقطعها إلا كوب من الشاي الساخن.

تذكرت شاي الأتراك بأسىً، وتجرعت بأسىً أشدّ الشاي الذي بيدي، وأنا لا أكاد أسيغه..

سقىٰ الله هذه الأيام.

عريس رغم أنفي (ج)

«إنها سفينة واحدة لا تحتمل حدة الصراع، وإنما الذي تحتمله هي هذه الزوجية المتحاورة المتنوعة المتكاملة»

لم يكن هناك ما أفعله سوىٰ إمعان النظر في محتويات المكان.. فليس ثمة طريقة أخرىٰ لطرد الملل الذي سيطر علىٰ نفسي وأصابني بالضيق..

ساعة أنتظر بين اللحظة والأخرىٰ قدوم الرجل.. لا أدري لِمَ لَمْ يخرج حتىٰ اللحظة؟!

ربما حبسه حابس!

تحرك مقبض الباب الخارجي فدهشت، ألم يكن الرجل بالمنزل؟!

علىٰ كل لست مسئولا عن مكانه، ولا عن جهة قدومه، لم يكن الرجل.. إنها امرأة أو بنت.. شكَّ الرائي، ألقتْ السلام، ودلفت إلىٰ الحرملك، كان طبيعيًا ألا أنظر إليها.

أبوها يتبوأ وظيفة مرموقة جدًا.. وهو ثريٌّ.. يملك شركة خاصة..

ظهر الرجل.. كان جمَّ الأدب والخلق.. رأيته قبل ذلك كثيرًا.. لم يكن يعرفني كما أعرفه.. وهذا هو الطبيعي.

رحَّب بي الرجل ترحيبًا شديدًا.. ودار حديث أذكر منه جانبًا:

- الدكتور عبد الحليم بيشكر فيك جدًا.. واضح إنه بيحبك

- ربنا يبارك في حضرتك يا أفندم.. الدكتور يحب كل الناس.. وهذا من حسن أخلاقه ونبله.

قلتُ في نفسي: وما الذي يجعل مولانا يتحدث عني إلىٰ رجل جئت أسلمه رسالة؟! كنت أتوقع أي شيء إلا أن أكون مبعوثًا كعريس، لا سيما أن العروس الأخيرة قد سببت حرجًا لمولانا برفضها لي- كما يتخيل رحمه الله- لم أجد إجابة، وتوالت الأسئلة من قبيل: مؤهلك إيه؟ وشغَّال فين؟ ومنين أصلا؟!

لكن سؤالا أغرب طرق أذني..

- إنت عضو في أندية ولا حاجة؟!

- أندية إيه يا أفندم؟!

- يعني الصيد، الأهلي، الزمالك، الزهور؟!

كتمت ضحكة كادت تنفلت.. هممت بالقول: أنا عضو في مركز شباب شنديد المطور، لكني استعذت بالله من الشيطان الرجيم.

طالت الجلسة قليلا.. كأنني ما جئت إلا للإجابة علىٰ أسئلة الرجل..

أثارعَجَبي ودهشتي.. لكني.. ودَّعتُهُ شاكرًا.

****

رآني مولانا قادمًا، فنظر إليَّ من أسفل نظارته السميكة متفحِّصًا..

لم يُمهلني حتىٰ الجلوس:

- إيه ده اللي معاك؟!

- والله الراجل أهداني هذا الكتاب

- زُلْفىٰ يعني.

- زلفىٰ ولَّا قربىٰ ليه؟! والله هو رجل محترم يا أستاذنا.

- طبعًا طبعًا.. وإلا ما كنتش بعتَّك ليه

- واتكلمتم في إيه؟!

- والله في أمور الدنيا

- طبعا سألك عن نفسك وكلام من ده

- فعلا واستغربت جدًا يا أستاذنا.. يبدو أنه رجل ودود

- جدًا جدًا

تظاهر مولانا بالانشغال في بعض أوراق أمامه، ومن أسفل نظارته السميكة سألني:

- طيب.. ما شفتش حد كده ولَّا كده؟!

- حد مين يا أستاذنا؟!

- واحدة يعني

استدعيت المشاهد سريعا، فاستيقنت أنني إزاء عروس جديدة.. ولكني قررت المراوغة..

- آآآآآآآآآه..شفت.. شفت

اعتدل مولانا في جلسته، وبدا فضوليًا أكثر مما يجب، وابتدرني سائلا: فتحت لك الباب؟!

- أيوه يا أستاذنا

- وإيه رأيك فيها؟!

- من ناحية إيه بالضبط؟!

- كويسة يعني؟

- والله واضح إنها سِتّ طيبة

- سِتّ إيه يا أخي؟! هو أنا بسألك عن أمها؟!

- مش قصد حضرتك الشغّالة؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. شغّالة إيه يا أخي، أنا هاعمل إيه بالشغّالة؟!

- طيب أنا هاعمل بيها إيه؟

- يا أخي شُفت بنت دخلت عليك وإنت قاعد؟!

تظاهرت بالتذكر.. بَدَوْتُ كَمَن يبحث في دفاتر الذاكرة، ثم فزعت قائلا:

- أيوه يا أستاذنا، فيه واحدة دخلت من بَرَّه وقالت: السلام عليكم

- وبعدين؟!

- رديت عليها طبعًا

- طيب إيه رأيك فيها؟!

- والله يا سيدنا ما نظرتُ إليها

- وما نظرتش إليها ليه؟!

- السؤال: وأنظر إليها ليه؟! إزاي أقعد في البيت وأنتهك ستره وحرماته!

- يا أخي- والله- إنت عجيب!

- أبعتك تشوف العروسة جاي تقولي ما أخدتش بالي؟!

- والله لو قلتَ لي إنها عروسة كنت اتكلمت معاها وخليتها هي تخطبني.. لكن لم تنبهني كالعادة.. ثم إنِّي زي ما قلت مش هينفع أتجوز من القاهرة

- يا أخي اسمع كلامي مرة في العمر.. دول ناس طيبين، والبنت محترمة، وأهلها لن يكلفوك فوق طاقتك

- قصد حضرتك لن يكلفوني شيئًا.. عايزين راجل يعني

- وما المشكلة يا أخي؟! ربنا مش قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء]

لم أردّ على تساؤله غلقًا لباب الجدال.. حينها أدرك- رحمه الله- فهمي للسيناريو بتفاصيله.. فمولانا كان صادقًا..

يريد الرجل أن يُزوِّج ابنته لشخص محترم.. لا يهمه المستوى المادي بقدر ما يهمه الجانب الخلقي.. فللبنت نصيبها الكبير من أبيها وأمها أيضًا.. وهو كفيل بأن يمنحها حياة مريحة ماديًّا.

تأكد لمولانا أنني لن أكون هذا الرجل.. فقد عرضت لي فرص كثيرة كهذه.. رفضتُها جميعًا.. وهو الأمر الذي كان يفسره دائمًا

بسلوكيات الفلاحين أو بالأدق (عنطزة الفلاحين).

انتهىٰ الأمر بعبارته التقليدية: خلاص يا أخي من اليوم فصاعدًا لا شأن لي بزواجك.. يمكن أن أساعدك في أي شيء إلا البحث عن عروسة.

لم يكن كلام سيدنا لينطلي عليَّ في هذا الموقف.. فقد تعلمتُ الدرس جيدًا، مولانا مُصرٌّ علىٰ تزويجي مهما كلَّفه الأمر.

***

مرت الأيام تباعًا.. كان بين وقت وآخر يقول لي: ما رأيك في الدكتور فلان؟ فأقول له: رجل محترم؟، فيقول لي: فما رأيك في مصاهرته، فأقول له: أما مصاهرته فلا، وهكذا دواليك إلىٰ أن باغتني يومًا بقوله:

- عملت إيه في موضوع العروسة؟!

- والله كنت هكلم حضرتك اليوم.. لقيت بنت كويسة، الحمد لله، وأهلها ناس طيبين

حدثته عن البنت وأهلها وأبيها وأمها.. لم أُحدِّثه عن رؤية رأيتها..

رأيتُني أتنزَّه في حديقة غنَّاء.. أحمل سلَّة من خَيْزُرَان فيها بطةٌ صغيرةٌ جميلة.. زرقاء العيون، ذهبية الريش ذات منقار أصفر فاقع لونه..

كان حجمها صغيرًا جدًا.. غير أنها كانت آسرة تأخذ بالألباب، لكن أمرًا عجبًا حدث..

كلما اقتربتُ منها تتحول إلىٰ معدن فتصعقني.. تمامًا كما الكهرباء.

لم أطلب منه تأويلها، فلم تكن تحتاج إلىٰ تأويل، فهي أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أبدىٰ مولانا عدم رضاه عن الخطبة وعدد لي بعض المخاوف.. ومضت الأيام وانفصلتُ عنها.. وتحققت مخاوف مولانا.

***

خطبت للمرة الثانية، وسرعان ما حدثت مشاكل لم تكن متوقعة.. تدخَّل مولانا بنفسه للحل.. منح الخِطبة قبلة حياة، ولكنها منقوصة..

نعم تأخَّر الانفصال، لكن.. لم يكن منه بُدٌّ ولا مَنَاصٌ.

أتذكر تمامًا قوله: أرىٰ أن هذه الزيجة لن تتم.. وأرجو أن أكون مخطئًا في ظني.

ليس هذا فحسب!

لقد ظل مولانا معنيًا بأمر زواجي حتىٰ بعد زواجي.. فقبل وفاته بأيام قليلة- وكان كثيرًا ما تعتريه الغيبوبة الكبدية حينها- كنت في الحجرة المجاورة أقرأ في كتاب فإذا به يناديني:

- بص يا أخي.. أنا شفت لك عروسة كويسة.

- والله يا أستاذنا؟!

- أيوه يا أخي بنت محترمة جدًا وجميلة.. وأبوها كان راجل عالم ومهذب.. ووالدتها ما شاء الله.

- مين هي؟!

- أميرة بنت الدكتور فلان الله يرحمه.

- ربنا يبارك فيك يا مولانا، بس هي هتوافق تبقىٰ زوجة تانية؟!

- تانية؟! هو أنت اتجوزت؟!.. الله يهديك يأخي، دا أنا ناسي إني رحت الفرح بتاعك، وقلت كلمة في المسجد، واتغدينا كمان، قوم نام الله يهديك.

- طيب وإيه المانع يا مولاي؟! هههههههه

- هتقوم ولا أتصل بزوجتك دلوقتي؟!

- لا لا، زوجتي إيه يا مولانا؟! أنا من الموحدين علىٰ مذهبكم.

***

لم أكن الشخص الوحيد الذي اعتنىٰ مولانا بتزويجه، وإن كنتُ الأوفر حظًا، فهناك الدكتور عبد الوهاب القرش، والشاعر الأنيق الدكتور عصام خليفة الذي كان أثيرًا عنده، والصديق حسني سلطان الذي كان يقوم بتطبيبه حال مرضه، ففىٰ يوم من أيام شهر رمضان ذهب معه إلىٰ مسقط رأسه بالمحلة الكبرىٰ ومعهم زوجته والحداد، واتصل مولانا بأحد معارفه في القليوبية يطلب منهم تجهيز قليل من الطعام يصطحبونه للإفطار في الطريق..

وصلوا أمام المنزل وأُمر حسني بالنزول لإحضار الطعام، فلبَّىٰ طائعًا، وما هي إلا دقائق حتىٰ عاد سريعًا.. ودار هذا الحوار:

- مين اللي أعطاك الأكل يا أخي؟!

- تقريبا ابنتهم يا دكتور؟!

- هما عندهم بنات؟!

- تقريبا

- طيب هي كويسة؟!

- من ناحية إيه يعني؟!

- تتجوزها يعني؟!

- هي حلوة بس أنا مش بفكر في الزواج دلوقتي.

لم يتم حسني كلماته، فقد تكفل مولانا بالاتصال بأهل العروس يطلب حجزها، لكنها كانت مشغولة بحق الغير كما يقول الفقهاء.. طلعت مخطوبة.. وفرح حسني، وحمد الله، وأثنىٰ عليه بما هو أهله.

رحمك الله شيخي الأجلّ..

لا أظن أن فجرًا ينبلج، أو شمسًا تغرب دون أن يمسني طيف ذكراك..

فسلام عليك إلىٰ يوم ألقاك.